فأمَّا النقلُ في ذلك: فإمَّا كَذبٌ أو غلطٌ، أو ليسَ بحجَّةٍ[١]؛ بل قد ذَكرنا النقلَ عمَّن يُقتدى به بخلافِ ذلك[٢].

وأما المعقولُ فنقولُ: عامَّةُ المذكورِ من المنافعِ كَذبٌ، فإن هؤلاءِ الذينَ يتحَرَّون الدُّعاءَ عند القبورِ وأمثالَهم: إنَّما يُستجابُ لهم في النادِرِ، ويَدعو الرجلُ منهم ما شاءَ اللهُ من دَعواتٍ، فيُستجابُ له في واحدةٍ، ويَدعو خلقٌ كثيرٌ منهم فيُستجابُ للواحدِ بعدَ الواحدِ، وأينَ هذا من الذين يتحرَّونَ الدُّعاءَ أوقاتَ الأسحَارِ، ويَدعُونَ اللهَ في سجُودِهم وأدبارِ صلاتِهم، وفي بُيوتِ اللهِ؟ فإنَّ هؤلاءِ إذا ابتَهلوا من جنسِ ابتهالِ المقَابِرِيِّينَ: لم تكدْ تسقطُ لهم دَعوةٌ إلا لمانعٍ؛ بل الواقعُ: أنَّ الابتهَالَ الذي يَفعلُه المقَابريُّونَ إذا فعلَهُ المخلِصونَ لم يُردَّ المخلِصونَ إلَّا نادرًا، ولم يُستجبْ للمقَابِرِيِّينَ إلَّا نادرًا[٣].

والمخلِصونَ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى خِصَالٍ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لَهُ دَعْوَتَهُ، أو يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مِثْلَها، أَوْ يَصْرِفَ عَنهُ مِن الشَّرِ مِثْلَها**» قالوا: يا رسولَ اللهِ إذَن نُكثرُ، قالَ: «**اللهُ أَكْثَرُ**»؛ فهُم في دعائِهم لا يَزالونَ بخيرٍ.

---

[١] إمَّا «كذب» بأنْ يتعمَّد الناقلُ الكذبَ، أو «غلط» بأنْ يزيد أو ينقص أو يُقدِّم ويؤخِّر، أو «ليس بحجة» بأنْ يكون نقلُه على ما هو عليه، لكن عمَّن قوله ليس بحجَّةٍ.

[٢] يعني: إذا ثبَت المنقولُ فهناك معارض.

[٣] فأيُّ الفريقين أحقُّ؟

الجواب: مَن لا يسقط دعاؤه إلا نادرًا، فبدَلًا من أنْ تذهب إلى المقبرة اذهَبْ إلى بيتٍ من بيوت الله تعالى.

وأما المقبَرِيُّونَ: فإنَّهم إذا استُجيبَ لهم نَادرًا فإنَّ أحدَهم يَضعفُ توحيدُهُ، ويقلُّ نصيبُهُ من ربِّهِ، ولا يَجدُ في قلبِه من ذَوقِ الإيمانِ وحَلاوتِه ما كانَ يَجدُه السابقونَ الأوَّلونَ، ولعلَّهُ لا يكادُ يُبارَكُ له في حاجتِهِ؛ اللَّهم إلا أن يَعفوَ اللهُ عنهم لعدمِ عِلمِهم بأن ذلكَ بِدعةٌ، فإنَّ المجتَهدَ إذا أخطأَ أثَابهُ اللهُ على اجتِهادِه وغَفرَ له خطَأَهُ.

وجميعُ الأمورِ التي يُظنُّ أن لها تأثيرًا في العالمِ وهي محرَّمةٌ في الشَّرعِ، كالتمريجاتِ الفَلكيَّةِ، والتوجُّهاتِ النفسَانيَّةِ؛ كالعينِ، والدُّعاءِ المحرَّمِ، والرقَى المحرَّمةِ أو التمريجاتِ الطبيعيَّةِ، ونحوِ ذلك؛ فإن مضرَّتَها أكثرُ من مَنفعتِها، حتَّى في نفسِ ذلك المطلُوبِ، فإن هذه الأمورَ لا يُطلبُ بها غالبًا إلا أمورٌ دُنيويَّةٌ، فقلَّ أن يحصلَ لأحدٍ بسببِها أمرٌ دُنيويٌّ إلا كانت عَاقبتُه فيه في الدنيا عاقبةً خَبيثةً، دعِ الآخرةَ.

والمخفقُ من أهلِ هذه الأسبابِ أضعَافُ أضعَاف المنجحِ، ثمَّ إن فيها من النكَدِ والضررِ ما اللهُ به عَليمٌ، فهي في نفسِها مضرَّةٌ ولا يَكادُ يَحصلُ الغرضُ بها إلَّا نَادرًا، وإذا حصلَ فضَررُه أكثرُ من نَفعِه[1]. والأسبابُ المشروعةُ في حُصولِ هذه

---

[١] ولهذا فمِن الذين يزورون المدينة وقصدهم زيارة قبر الرسول ﷺ تتعلَّق قلوبهم بالقبر وبالبقيع أكثر من تعلُّقهم بربِّ العرش، حتى إنَّنا رأينا أحدهم فاتَهُ الذَّهاب إلى المدينة في موسم الحج؛ لأنَّه منع السفر إلى المدينة لقُرب الموسم فجعل يبكي بكاءً شديدًا، فقلنا: لماذا؟ قال: فاتتني الزيارة! فاتتني الأنوار! وينفعل، والأنوار عنده: زيارةُ قبر النبيِّ ﷺ، وأمَّا الكعبة فما تهمُّه على هذا!

لذلك فهذه المسألة خطيرة؛ فإنَّ تعلُّق الإنسان بالمخلوق لا شَكَّ أنَّه يصرفه عن الخالق مهما كانت درجة المخلوق، فعليك بالتعلُّق بربك، هذا هو الذي ينفعك، أمَّا التعلُّق بالخلق فيقولُ الرسول ﷺ لابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمَعُوا**

المطالبِ المبَاحةِ أو المستَحبَّةِ، سواءٌ كانت طبيعيَّةً؛ كالتجارةِ والحِراثةِ، أو كانت دِينيَّةً؛ كالتوكلِ على اللهِ، والثقةِ به، وكدعاءِ الله سبحانَه على الوجهِ المشرُوعِ، في الأمكِنةِ والأزمِنةِ التي فضَّلَها اللهُ ورسولُه بالكلِماتِ المأثُورةِ عن إمامِ المتَّقينَ ﷺ[1]، وكالصدَقةِ، وفعلِ المعروفِ: يَحصلُ بها الخيرُ المحضُ أو الغالبُ، وما يَحصلُ من ضررٍ بفعلِ مَشروعٍ، أو تَركِ غيرِ مشروعٍ مما نُهي عنه: فإنَّ ذلك الضررَ مَكْثورٌ في جانبِ ما يَحصلُ من المنفعَةِ[2].

= **على أنْ ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبَه الله لك، ولو اجتمَعُوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبَه الله عليك»**[1].

حتى إنَّ بعض السَّلَفِ رحمهم الله يكرَهُ أنْ يذهب إلى الطبيب ليُداويه يخشى أنْ يتعلَّق به قلبه أكثرَ من تعلُّقه بالله تعالى، ويفضِّل أنْ يتوكَّل على الله حقَّ التوكُّل، ويُشفى بإذن الله تعالى.

[١] إنَّ الدعوات بالكلمات المأثورة في الكتاب والسُّنَّة أفضَلُ وأطيَبُ وأجمَعُ وأنفَعُ من هذه الكلمات والأدعية المسجوعة؛ ولهذا يجبُ الحذر ممَّا يُنْشَر أحيانًا بين الناس العامَّة من الأدعية؛ فبعضها غلط، لكنَّها مسجوعة منمَّقة فيغتر الجهَلَة بها.

والواجب على طلبة العلم أن يُبيِّنوا أنَّه لا دعاء أنفع ولا أجمع ممَّا في الكتاب والسُّنَّة؛ ولهذا قيَّد المؤلِّف رحمه الله بقوله: «الكلمات المأثورة عن إمام المتَّقين»، صلوات الله وسلامه عليه.

[٢] المشركون إذا كانوا في البحر وغشِيَهُم موجٌ كالظُّلَلِ يدعون الله تعالى؛ يعرفون أنَّه لن يكشف هذا الضرَّ إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وعند آلهتِهم يدعون آلهتَهم؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ دعاء الله تعالى هو الدُّعاء الصحيح النافع.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٤٥٥).

وهذا الأمرُ -كما أنَّه قد دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ-: فهو أيضًا معقولٌ بالتجارِبِ المشهُورةِ والأقيسةِ الصحيحةِ، فإنَّ الصلاةَ والزكاةَ يَحصلُ بهما خيرُ الدنيا والآخرةِ، ويَجلِبانِ كلَّ خيرٍ، ويَدفعانِ كلَّ شرٍّ.

فهذا الكلامُ في بيانِ أنَّه لا يَحصلُ بتلكَ الأسبابِ المحرَّمةِ لا خيرٌ محضٌ ولا غالبٌ، ومن كان له خِبرةٌ بأحوالِ العالمِ وعقلٌ؛ تَيقَّنَ ذلك يَقينًا لا شكَّ فيه.

وإذا ثَبتَ ذلك: فليسَ علينا من سببِ التأثيرِ أَحيانًا، فإنَّ الأسبابَ التي يَخلقُ اللهُ بها الحوادثَ في الأرضِ والسماءِ لا يُحصِيها على الحقِيقةِ إلا هو، أمَّا أعيانُها فبلا ريبٍ، وكذلك أنواعُها أيضًا لا يَضبطُها المخلوقُ لسَعةِ مَلكوتِ اللهِ سبحانه وتعالى؛ ولهذا كانت طريقةُ الأنبياءِ عليهم السلام: أنَّهم يَأمرونَ الخلقَ بما فيه صلاحُهم، ويَنهونَهم عمَّا فيه فسادُهم، ولا يَشغلونَهم بالكلامِ في أسبابِ الكائناتِ كما تَفعلُ المتفَلسِفَةُ، فإنَّ ذلك كثيرُ التعبِ، قليلُ الفائدةِ، أو مُوجِبٌ للضررِ[١].

ومثَالُ النبيِّ مثالُ طبيبٍ دخلَ على مريضٍ، فرأى مرضَهُ فعلِمَهُ، فقالَ له: اشربْ كذا، واجتنِبْ كذا، ففَعلَ ذلك، فحصَلَ غرضُه من الشِّفاءِ. والمتفَلسِفُ قد يطوِّلُ معه الكلامَ في سببِ ذلك المرضِ وصِفتِه وذمِّهِ وذمِّ ما أوجبَهُ ولو قالَ له المريضُ: فما الذي يَشفيني منه؟ لم يكن له بذلك علمٌ تامٌّ.

---

[١] هذا كلامٌ مُهمٌّ؛ فاشتِغال الإنسان بأسباب الكائنات وطبائعها الفلكيَّة والأرضيَّة، كما قال الشيخ رحمه الله: نفعُه قليل، وهو مُضيِّع للوقت، ويحرِم الإنسانَ ممَّا هو أهمُّ، وربما يكون ضارًّا؛ لأنَّ الإنسان لا يُحيط بحِكمة الله عَزَّوَجَلَّ، فقد يقولُ له الشيطان: هذا تناقضٌ في التكوين، وتناقضٌ في العقل، وتناقضٌ في الخلق؛ ولهذا نرَى الذين يبحثون في هذه الأمور ويتعمَّقون فيها وليس عندهم من العلم الشرعي شيءٌ: أنهم قاصرون مهما بلغوا؛ ولهذا قال رحمه الله: «فإنَّ ذلك كثيرُ التعبِ، قليلُ الفائدةِ، أو مُوجِبٌ للضررِ».

والكلامُ في بيانِ تأثِير بعضِ هذه الأسبابِ قد يكونُ فيه فتنةٌ لمن ضَعُفَ عقلُه ودينُه، بحيثُ تَختَطِفُ عقلَه فيتألَّه إذا لم يُرزقْ من العلمِ والإيمانِ ما يُوجِبُ له الهدى واليقينَ[١].

ويَكفي العاقلَ أن يَعلمَ أن ما سِوى المشروعِ لا يُؤثِّرُ بحالٍ، فلا منفعةَ فيه، أو أنَّه -وإن أثَّرَ- فضررُهُ أكثرُ من نَفعِه.

ثم سببُ قضاءِ حاجةِ بعضِ هؤلاءِ الداعينَ الأدعِيةَ المحرَّمةَ: أنَّ الرجلَ منهم قد يكونُ مُضطرًّا ضَرورةً لو دَعا اللهَ بها مشركٌ عند وثنٍ لاسْتُجِيبَ له؛ لصِدْقِ توجُّهِهِ إلى اللهِ، وإن كان تحرِّي الدُّعاءِ عندَ الوَثنِ شِركًا، ولو استُجيبَ له على يدِ المتوسَلِ به صاحبِ القبرِ أو غيرِه لاستغَاثَتِه؛ فإنَّه يُعاقبُ على ذلك ويَهوي به في النار -إذا لم يَعفُ اللهُ عنه- كما لو طَلَبَ من اللهِ ما يكونُ فتنةً له، كما أن ثعلَبةَ لما سألَ النبيَّ ﷺ أن يَدعو له بكثرةِ المالِ، ونَهاهُ النبيُّ ﷺ عن ذلك مرةً بعدَ مرةٍ فلم يَنتهِ، حتَّى دَعا له، وكان ذلك سببَ شقائِهِ في الدنيا والآخرةِ[٢].

---

[١] صحيحٌ لا شَكَّ فيه؛ فالتعمُّق في هذا قد يكون فتنةً للإنسان، إذا لم يكن عنده عقلٌ راسخ أو دِين قوي.

[٢] حديث ثَعْلبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)] هذا لا يصحُّ عن النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه مُنافٍ للقُرآن، فإنَّ الرجل تابَ وأتى إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وردوه، وهذا يُنافي القُرآن؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، والحديث من الناحية الحديثيَّة غيرُ صحيح.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، رقم (٢٢٥٣)، والطبري في التفسير (١١/ ٥٧٨-٥٨٠)، والبيهقي في الشعب (٤٠٤٨)، من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيَسْأَلُنِي المَسْأَلَةَ، فَأُعْطِيهَا إِيَّاهُ، فَيَخْرُجُ بِهَا يَتَأَبَّطُهَا نَارًا**» فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، فلمَ تُعطِيهم؟ قال: «**يَأبَونَ إلَّا أن يَسْأَلُونِي، ويَأَبَى اللهُ لِي البُخْلَ**».

فكَم من عبدٍ دَعا دعاءً غيرَ مباحٍ فقُضيتْ حاجتُه في ذلك الدُّعاءِ، وكان سببَ هلاكِهِ في الدنيا والآخرةِ!

تارةً بأن يَسألَ ما لا يَصلحُ له مسألتُه، كما فَعلَ بلعامُ وثعلبةُ، وكخلقٍ كثيرٍ دَعوا بأشياءَ فحصلَتْ لهم، وكان فيها هَلاكُهم. وتارةً بأن يَسألَ على الوجهِ الذي لا يحبُّهُ اللهُ، كما قال سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥] فهو سبحانه لا يحبُّ المعتَدينَ في صفةِ الدُّعاءِ ولا في المسؤولِ؛ وإن كانت حاجَتُهم قد تُقضَى، كأقوامٍ ناجَوا اللهَ في دعواتِهم بمناجَاةٍ فيها جُرأةٌ على اللهِ واعتداءٌ لحدودِهِ، وأُعطُوا طِلْبَتَهُم فتنةً ولما يشاءُ الله سبحانه، بل أشدُّ من ذلك[١].

ألستَ تَرى السحرَ والطلسَماتِ والعينَ وغيرَ ذلك من المؤثِّراتِ في العالمِ بإذنِ اللهِ قد يُقضَى بها كثيرٌ من أغراضِ النفوسِ؟! ومع هذا فقد قالَ سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟

---

[١] **قوله رحمه الله**: «وأُعطُوا طِلْبَتَهُم فتنةً ولما يشاءُ الله سبحانه، بل أشدُّ من ذلك»؛ أي: وقد يُعطَوْن أشدَّ ممَّا طلبوا؛ فتنةً من الله.

مسألة: هل من الاعتداء في الدُّعاء أنْ يُقسِمَ الإنسان على الله تعالى؟

الجواب: هذا فيه نظر؛ فإذا كان الحاملُ للإنسان على هذا حُسْنَ الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه مجيبُ الدعوات، ولم يُقْسِم على الله تعالى في شيءٍ محرَّم، فليس من الاعتِداء في الدُّعاء، بل هو من حُسن الظنِّ بالله، أمَّا إذا كان إقسامه على ربِّه لحسن ظنِّه بنفسه وإعجابه بها، فهذا حرامٌ.

لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٢-١٠٣][1].

فإنَّهم مُعترفُونَ بأنَّه لا يَنفعُ في الآخرةِ، وأنَّ صاحبَهُ خاسرٌ في الآخرةِ، وإنما يَتشبَّثونَ بمنفَعتِهِ في الدنيا، وقد قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة:١٠٢].

وكذلك أنواعٌ من الداعينَ والسائِلينَ قد يَدعُونَ دعاءً محرَّمًا يَحصلُ معه ذلك الغرضُ، ويُورثُهم ضَررًا أعظمَ منه، وقد يكونُ الدُّعاءُ مَكروهًا ويُستجابُ له أيضًا.

ثمَّ هذا التحريمُ والكراهَةُ قد يَعلمُه الداعِي، وقد لا يَعلمُه على وجهٍ لا يُعذرُ فيه بتقصيرٍ في طلبِ العلمِ، أو تَركٍ للحقِّ، وقد لا يَعلمُه على وجهٍ يُعذرُ فيه، بأن يكونَ فيه مُجتهدًا أو مُقلِّدًا، كالمجتَهدِ والمقلِّدِ اللَّذَينِ يُعذرانِ في سائرِ الأعمالِ، وغيرِ المعذورِ قد يَتجاوزُ اللهُ عنه في ذلك الدُّعاءِ لكَثرةِ حَسناتِهِ وصدقِ قَصدِهِ، أو لمحضِ رحمةِ اللهِ به، أو نحوِ ذلك من الأسبابِ.

فالحاصلُ: أنَّ ما يَقعُ من الدُّعاءِ المشتَملِ على كَراهةٍ شَرعيَّةٍ بمنزلةِ سائرِ أنواعِ العباداتِ.

وقد عُلِمَ أنَّ العبادةَ المشتمِلةَ على وصفٍ مَكروهٍ، قد تُغفرُ تلك الكراهةُ لصاحبِها لاجتهادِهِ أو تَقليدِه، أو حَسناتِه، أو غيرِ ذلك، ثمَّ ذلك لا يَمنعُ أن يعلمَ أن ذلك مكروهٌ يُنهى عنه، وإن كان هذا الفاعلُ المعيَّنُ قد زالَ مُوجَبُ الكراهةِ في حقِّهِ.

---

[١] هذه تَرِدُ في القرآن كثيرًا «خير» فيحسُن الوقوف عليها؛ لأنَّك لو وصَلت: خير لو كانوا يعلمون، لكان تقييد كونِها خيرًا بعِلمهم، وليس هذا مرادًا.

ومن هنا يَغلَطُ كثيرٌ من الناسِ فإنَّهم يَبلغُهم أن بعضَ الأعيانِ من الصَّالحينَ عَبدوا عبادةً أو دَعوا دعاءً ووجَدوا أثرَ تلكِ العبادةِ وذلك الدُّعاءِ، فيجعلُونَ ذلك دليلًا على استِحسانِ تلك العبادةِ والدُّعاءِ، ويَجعلونَ ذلك العملَ سُنَّةً كأنَّه قد فَعلهُ نبيٌّ، وهذا غَلطٌ لما ذَكرنَاه، خُصوصًا إذا كان ذلكَ العملُ إنما كانَ أثرُهُ بصدقٍ قامَ بقلبِ فاعِلهِ حينَ الفعلِ، ثم يَفعلُه الأتباعُ صورةً لا صِدقًا فيُضَرُّونَ به؛ لأنَّه ليسَ العملُ مَشروعًا فيكونَ لهم ثوابُ المتَّبعينَ، ولا قامَ بهم صدقُ ذلك الفاعلِ الذي لعلَّه بصدقِ الطلبِ وصحَّةِ القصدِ يُكَفَّرُ عن الفاعلِ[١].

ومن هذا البابِ: ما يُحكى من آثارٍ لبعضِ الشيوخِ حصلتْ في السماعِ المبتَدَعِ فإن تلكَ الآثارَ إنَّما كانتْ عن أحوالٍ قامتْ بقلوبِ أولئكَ الرجَالِ حَرَّكَها مُحركٌ كانوا في سَماعِه إما مُجتهِدينَ، وإما مُقصِّرينَ تَقصيرًا غَمرهُ حَسناتُ قَصدِهم؛ فيأخذُ الأتبَاعُ حضورَ صُورةِ السماعِ وليس حضورُ أولئكَ الرجال سُنَّةً تتَّبعُ، ولا مع المقتَدينَ من الصدقِ والقصدِ ما لأجلِهِ عُذرُوا أو غُفرَ لهم، فيَهْلِكونَ بذلك[٢].

---

[١] **قوله رحمه الله**: «ولا قام بهم صِدق ذلك الفاعل»، بخِلاف المتبوع الذي قلَّدُوه، فعِنده من الصِّدق في الطَّلَبِ والالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ ما ليس عند هؤلاء، لكن قلَّدُوه تقليدًا صُوريًّا، فظنُّوا أنَّ هذه الصورة هي سبب إجابةِ الدُّعاء والسبب غيره، فالسبب ما قام في قلب هذا المتبوع من الصِّدق وصِدق القصد واللجُوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لكن المشروع مشروعٌ على أصله ووَصْفه.

[٢] كلام الشيخ رحمه الله في غاية ما يكون من العدل؛ لأنَّه يُوجد عند السَّماع المحرَّم من الأغاني والأناشيد الصوفيَّة مَن يزداد إيمانُه بذلك؛ لحُسن قَصْده وصِدق لُـجُوئه إلى الله تعالى، فيظن الأتباع أنَّ صورة هذا العمل هي التي جعَلت هذا يرتَقِي إلى منزلةٍ عالية في اليقين، فيتَّبعونه في ذلك، مع أنَّهم لم يحصل لهم مثل ما حصَل لهذا.

وكما يُحكى عن بعضِ الشيوخِ: أنَّه رُؤي بعدَ موتِه، فقيلَ له: ما فعلَ اللهُ بكَ؟ فقالَ: أَوقفَني بين يديهِ وقال لي: يا شَيخَ السوءِ، أنتَ الذي كنتَ تتمثَّلُ فيَّ بسُعدَى ولُبنَى؟ لولا أنِّي أعلمُ أنكَ صادقٌ لعذَّبتُكَ!.

فإذا سمعتَ دعاءً أو مُناجاةً مَكروهةً في الشرعِ قد قُضيتْ حَاجةُ صاحِبها فكثيرًا ما يكونُ من هذا البابِ، ولهذا كانَ الأئمَّةُ العلماءُ بشريعةِ اللهِ يَكرهُونَ هذا من أصحَابِهم، وإن وجَدَ أصحابُهم أثرَهُ، كما يُحكى عن سَمْنُونَ المُحِبِّ قال: وقَعَ في قَلبي شيءٌ من هذه الآياتِ فجئت إلى دِجْلَةَ، فقلت: وعزَّتك لا أذهبُ حتَّى يَخرجَ لي حوتٌ، فخرجَ حوتٌ عظيمٌ، أو كما قالَ، قالَ: فبَلَغَ ذلك الجُنيدَ؛ فقال: كنتُ أحِبُّ أن تَخرجَ إليه حيَّةٌ فتقتلَه[١].

وكذلك حُكي لنا أن بعضَ المجاورِينَ بالمدينةِ جاءَ إلى عندِ قبرِ النبيِّ ﷺ فاشتَهى عليه نوعًا من الأطعمةِ، فجاءَ بعضُ الهاشِميِّينَ إليه، فقالَ: إنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ لك ذلكَ، وقال لكَ: اخرجْ من عندِنا، فإنَّ مَن يكونُ عندَنا لا يَشتهِي مثلَ هذا.

وآخرونَ قُضيت حوائِجُهم ولم يُقل لهم مثلُ هذا لاجتِهادِهم أو تقلِيدِهم، أو قصورِهم في العلمِ، فإنَّه يُغفرُ للجاهلِ ما لا يُغفرُ لغيرِه[٢]، كما يُحكى عن برخ العابدِ الذي استَسقَى في بَني إسرائيلَ.

---

[١] هكذا قال؛ لئلا يغترَّ به غيره فيفعل مثل فِعلِه، ليحصُل له ما حَصَل له؛ ولهذا لو فعَل إنسانٌ مثلَ فعلِه، وقال هذا الدُّعاء، ما خرَج له الحوتُ، فالجُنيد رحمه الله خافَ أنْ يُقتَدى به.

[٢] يُغفَر للجاهل ما لا يُغفَر لغيره، وينبغي لطالب العلم أنْ يتَأدَّب؛ لأنَّ الله مَنَّ عليه بعِلمٍ فلا يُعذَرُ فيه؛ إذ الجاهِلُ يُعذَر لأنَّه لا يعلمُ، وربما لو عَلِم عَمِل، نسألُ الله الذي مَنَّ علينا بما علَّمَنا أنْ يُعِينَنا على العمل به.

ولهذا عامَّةُ ما يُحكى في هذا البابِ إنما هو عن قَاصِري المعرفةِ، ولو كانَ هذا شَرعًا ودِينًا لكان أهلُ المعرِفةِ أولى به.

ولا يُقال: هؤلاءِ لـمَّا نَقصتْ معرفتُهم ساغَ لهم ذلكَ، فإنَّ اللهَ لم يُسَوِّغْ هذا لأحدٍ، لكنَّ قُصورَ المعرفةِ قد يُرجى معه العفوُ والمغفرةُ.

أما استحبابُ المكروهَاتِ، أو إباحَةُ المحرَّماتِ: فلا نفرِّقُ بين العفوِ عن الفاعلِ والمغفرةِ له، وبين إباحَةِ فِعلِه أو المحبَّةِ له، سواءٌ كان ذلك مُتعلقًا بنفسِ الفعلِ أو ببعضِ صِفاتِه.

وقد علمتُ جَماعةً مِمَّن سألَ حاجَتَه من بعضِ المقبُورينَ من الأنبياءِ والصالحينَ فقُضيتْ حاجتُه، وهو لا يَخرجُ عمَّا ذكرتُه، وليسَ ذلك بشرعٍ فيُتَّبعُ ولا سُنَّةٌ.

وإنَّما يَثبتُ استحبابُ الأفعالِ واتِّخاذُها دِينًا بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه ﷺ، وما كان عليه السَّابقونَ الأوَّلونَ، وما سِوى هذه من الأمورِ المحدَثةِ فلا يُستحبُّ، وإنِ اشتَملتْ أحيانًا على فوائدَ؛ لأنَّا نعلمُ أنَّ مفاسِدَها راجحةٌ على فوائدِها.

ثم هذا التحريمُ أو الكراهةُ المقترِنةُ بالأدعيةِ المكروهَةِ: إمَّا من جهةِ المطلوبِ، وإما من جهةِ نفسِ الطَّلبِ، وكذلكَ الاستِعاذةُ المحرَّمةُ أو المكرُوهةُ: فكراهتُها إمَّا من جهةِ المستَعاذِ منه، وإمَّا من جهةِ نفسِ الاستِعاذةِ، فيَنجونَ من ذلك الشرِّ، ويَقعونَ فيما هو أعظمُ منه.

أمَّا المطلوبُ المحرَّمُ: فمثل أن يَسألَ ما يَضرُّهُ في دنياهُ أو آخرتِه، وإن كانَ لا يَعلمُ أنَّه يَضرُّهُ فيستَجَاب له، كالرجلِ الذي عادَهُ النبيُّ ﷺ فوجدَهُ مثلَ الفرخِ فقالَ: «**هَل كُنتَ تَدْعُو اللهَ بِشَيءٍ؟**» قالَ: كُنتُ أقولُ: اللَّهم ما كنتَ مُعاقِبني به في الآخرةِ فعَجِّله لي في الدُّنيا، قال: «**سبحانَ اللهِ، إنكَ لا تستطيعُه** -أو: **لا تُطيقُه- هلَّا قلتَ: ربنا آتِنا في الدنيا حَسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ**».

وكأهلِ جابرِ بنِ عَتيكٍ لـما ماتَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**لا تَدعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم إلَّا بِخَيْرٍ؛ فإنَّ المَـلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ على مَا تَقُولُونَ**».

وقد عابَ اللهُ على مَن يَقتصرُ على طلبِ الدنيا بقولِه: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠] فأخبرَ أنَّ من لم يطلبِ إلا الدُّنيا لم يكن له في الآخرةِ نصيبٌ.

ومثل أن يَدعو على غيرِه دعاءً مَنهيًّا عنه، كدعاءِ بَلْعَمِ بْنِ بَاعُورَ على قومِ مُوسى عليه السلام، وهذا قد يُبتَلى به كثيرٌ من العُبَّاد أربابِ القلوبِ، فإنَّه قد يَغلبُ على أحدِهم ما يَجدُه من حبٍّ أو بغضِ الأشخاصِ فيَدعو لأقوامٍ وعلى أقوامٍ بما لا يَصلحُ، فيُستَجاب له ويَستحقُّ العقوبةَ على ذلك الدُّعاءِ كما يَستحقُّها على سائرِ الذنوبِ، فإن لم يَحصلْ له ما يَمحوهُ من توبةٍ، أو حسناتٍ ماحيةٍ، أو شفاعةِ غيرِه، أو غيرِ ذلك، وإلا فقَد يُعاقبُ إما بأن يُسلبَ ما كان عندَهُ من ذوقِ طَعمِ الإيمانِ ووجودِ حلاوتِهِ فينزلُ عن درجتِهِ، وإما أن يُسلَبَ عملَ الإيمانِ فيصيرَ فاسقًا، وإما بأن يُسلبَ أصلَ الإيمان فيصير كافرًا منافقًا أو غيرَ منافقٍ.

وما أكثر ما يُبتلى بهذا المتأخِّرونَ من أربابِ الأحوالِ القَلبيَّةِ بسببِ عدمِ فقهِهم في أحوالِ قلوبِهم، وعدمِ معرفةِ شريعةِ اللهِ في أعمالِ القلوبِ، وربَّما غلبَ على أحدِهم حالُ قلبِه حتَّى لا يمكنُه صرفُه عمَّا توجَّهَ إليه، فيبقَى ما يَخرجُ منه مثلَ السهمِ الخارجِ من القوسِ، وهذه الغَلَبَةُ إنَّما تقعُ غالبًا بسببِ التقصيرِ في الأعمَالِ المشروعَةِ التي تَحفظُ حالَ القلبِ، فيؤاخذُ على ذلكَ، وقد تقعُ بسببِ اجتهادٍ يُخطئُ صاحبُه فتقعُ مَعفوًّا عنها.

ثم من غرورِ هؤلاءِ وأشباهِهم: اعتقادُهم أنَّ استجابَةَ مثلِ هذا الدُّعاءِ كرامةٌ من اللهِ تعالى لعبدِه، وليست في الحقيقةِ كرامةٌ، وإنَّما تُشبهُ الكرامةَ من جهةِ أنَّها دعوةٌ

نافذةٌ، وسلطانٌ قاهرٌ، وإنَّما الكرامةُ في الحقيقةِ؛ ما نَفعتْ في الآخرةِ، أو نَفعتْ في الدُّنيا ولم تضرَّ في الآخرةِ، وإنَّما هذا بمنزلةِ ما يَنعمُ به الكفَّارُ والفساقُ من الرياساتِ والأموالِ في الدنيا فإنَّها إنَّما تصيرُ نعمةً حقيقيَّةً إذا لم تضرَّ صاحبَها في الآخرةِ[1]؛.....

---

[١] الكرامة هي كما قال الشيخ رحمه الله: إمَّا أنْ تكون للمؤمنين عُمومًا، وإمَّا لنفس صاحِبِها خاصَّة؛ لتقوية إيمانِه، أو لغير ذلك ممَّا يُنْعِم الله تعالى به عليه.

وهي: أمرٌ خارِقٌ للعادة، يُظهِرُه الله سبحانه وتعالى على يد وَلِيٍّ من أوليائه؛ تثبيتًا له، أو نُصرةً لدِين الله، أو تأييدًا للشريعة التي هو عليها؛ ولهذا نقول: كلُّ كرامةٍ لوليٍّ فهي مُعجِزةٌ للنبيِّ؛ يعني: من آيات النبي؛ لأنَّ كون هذا الرجل يُكرَم لاتِّباعه هذه السُّنَّة يدلُّ على أنَّ هذه السُّنَّة محبوبةٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

والذي يظهر خارقًا للعادة أربعة أنواع:

الأول: للتأييد، ويكون معجزة إذا كان على يد نبيٍّ، ويُسمى آيةً؛ لأنَّ الخارق للعادة الذي يظهر على يد النبيِّ يُقْصَدُ به أنْ يكون آيةً على صِدقه.

والثاني: ما كان من وليٍّ تَقِيٍّ، فهذه كَرَامة.

والثالث: ما كان من شَقِيٍّ عدوٍّ لله ورسوله، فهذا فتنةٌ؛ يفتتن به مَن هو على هذه الحال وغيره أيضًا.

والرابع: أن تكون تكذيبًا لمن ظهرت على يده، كما يُذكَر عن مُسَيْلِمَةَ أنَّه أتاه قومٌ وقد غارَ ماءُ بئرِهم ولم يَبْقَ فيه إلَّا القليل، فطلبوا منه أنْ يتمَضمَضَ ويمجَّ الماء فيها؛ لعلَّها تجيشُ بالماء، فلمَّا فعَل غار الماء الموجود فيها، فهذا لا شَكَّ أنَّه خارقٌ للعادة، لكن المقصود به التكذيب والإهانة لا التأييد والإعانة.

لكن الكرامات تنفعُ في الدُّنيا والآخِرة، وأمَّا ما ينفعُ في الدنيا ويضرُّ في الآخِرة فليس كرامةً.

ولهذا اختلفَ أصحابُنا وغيرُهم من العلماءِ: هل ما يَنعمُ به الكافرُ نعمةٌ أو ليسَ بنعمةٍ؟ وإن كان الخلافُ لَفظيًّا[١]؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥- ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، وفي الحديثِ: «**إذَا رأيتَ اللهَ يُنعِمُ عَلَى العَبْدِ مَع إقَامَتِهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَإنَّما هُو اسْتِدْرَاجٌ يَسْتَدْرِجُهُ**».

ومثالُ هذا في الاستعاذةِ: قولُ المرأةِ التي جاءَ النبيُّ ﷺ ليَخطِبُها فقالت: أعوذُ باللهِ مِنك، فقال: «**لَقَدْ عُذْتِ بِمُعَاذٍ**»، ثمَّ انصرفَ عنها فقيلَ لها: إنَّ هذا النبيُّ ﷺ، فقالت: أنا كُنتُ أشقَى من ذلك.

وأمَّا التحريمُ من جهةِ الطلبِ: فيكونُ تارةً لأنه دعاءٌ لغيرِ اللهِ، مثلَ ما يَفعلُه السحرةُ من مُخاطبَةِ الكواكبِ وعِبادتِها ونحوِ ذلك، فإنه قَد يُقْضَى عقبَ ذلك أنواعٌ من القضاءِ، إذا لم يعارضهُ مُعارضٌ من دعاءِ أهلِ الإيمانِ وعبادتِهم أو غيرِ ذلك، ولهذا تَنفذُ هذه الأمورُ في أزمانِ فترةِ الرسُلِ وفي بلادِ الكفرِ والنفاقِ ما لا تَنفذُ في دارِ الإيمانِ وزمانِهِ.

ومن هذا: أني أعرفُ رجالًا يَستغيثونَ ببعضِ الأحياءِ في شَدائدَ تَنزلُ بهم فيفرَّجُ عنهم، وربَّما يُعاينونَ أمورًا، وذلك الحيُّ المُستغاثُ بـه لم يَشعر بذلك، ولا عِلمَ له به

---

[١] **والصحيح**: أنَّ الكافر لله عليه نعمةٌ بلا شَكٍّ في إيجاده وإعداده وإمداده؛ قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٧]، «نَعمة»؛ أي: تنعُّمًا وتَرَفُّهًا.

فالصواب: أنَّ لله تعالى نعمةً على الكافر وعلى المسلم، لكن نعمة الله تعالى على الكافر إنَّما هي في الدنيا فقط، أمَّا في الآخِرة فليس له نعمةٌ ولا كرامةٌ.

البتةَ، وفيهم من يَدعو على أقوامٍ أو يَتوجَّهُ في إيذائِهم، فيَرى بعضَ الأحياءِ أو بعضَ الأمواتِ يَحولُ بينَه وبينَ إيذاءِ أولئكَ: ورُبَّما رَآه ضَاربًا له بسيفٍ، وإن كان الحايلُ لا شُعورَ له بذلك، وإنَّما ذلك من فِعلِ اللهِ سبحانَه بسببٍ يكونُ بينَ المقصودِ وبين الرجلِ الدافعِ من اتِّباعٍ له وطاعةٍ فيما يَأمُرُه من طاعةِ اللهِ ونحو ذلك، فهذا قريبٌ.

وقد يَجري لعُبَّادِ الأصنامِ أحيانًا من الجنسِ المحرَّمِ محنةٌ من اللهِ بما تَفعلُه الشياطينُ لأعوانِهم، فإذا كان الأثرُ قد يَحصلُ عقبَ دعاءِ مَن قَد تيقَّنَّا أنَّه لم يسمعِ الدُّعاءَ، فكيفَ يُتوهم أنَّه هو الذي تَسببَ في ذلك، أو أنَّ له فيه فِعلا؟!

وإذا قيلَ: إنَّ اللهَ يفعلهُ بذلك السببِ؛ فإذا كانَ السببُ مُحَرَّمًا لم يجُز، كالأمراضِ التي يُحدثُها اللهُ عقبَ أكلِ السُّمومِ، وقد يكونُ الدُّعاءُ المحرَّمُ في نفسِه دعاءً لغيرِ اللهِ، وأن يَدعو اللهَ كما تقولُ النصَارى: يا والدةَ الإلَهِ اشفَعِي لنا إلى الإلهِ! وقد يكونُ دعاءً للهِ، لكنَّه توسَّلَ إليه بما لا يُحِبُّ أن يتوسَّلَ به كالمشركِينَ الذين يَتوسَّلونَ إلى اللهِ بأوثانِهم، وقد يكونُ دعاءً للهِ بكلماتٍ لا تَصلحُ أن يُناجَى بها اللهُ ويُدعى بها؛ لما في ذلك من الاعتداءِ.

فهذه الأدعيةُ ونحوُها -وإن كانَ قد يَحصلُ لصاحبِها أحيانًا غرضُهُ- لكنَّها مُحَرَّمةٌ؛ لما فيها من الفسادِ الذي يُربي على منفعتِها، كما تقدَّم، ولهذا كانت هذه فِتنةً في حقِّ من لم يَهدِهِ اللهُ وينوِّرْ قلبَهُ، ويفرِّقْ بين أمرِ التكوينِ وأمرِ التشريعِ، ويُفرِّق بينَ القَدَرِ والشرعِ، ويُعلَمُ أنَّ الأقسام ثلاثة:

أمورٌ قدَّرها اللهُ وهو لا يُحبُّها ولا يَرضَاها؛ فإنَّ الأسبابَ المحصِّلةَ لهذه تكونُ مُحَرَّمةً مُوجِبةً لعقابِه.

وأمورٌ شَرعَها فهو يُحبُّها من العبدِ ويَرضَاها، لكن لم يُعِنْهُ على حصولِها، فهذه محمودةٌ عنده مَرضيَّةٌ وإن لم تُوجد.

والقسمُ الثالثُ: أن يُعينَ اللهُ العبدَ على ما يُحبُّه منه.

فالأولُ: إعانةُ اللهِ، والثاني: عبادةُ اللهِ، والثالثُ: جمعٌ له بين العبادةِ والإعانةِ، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

فما كان من الدُّعاءِ غيرِ المباحِ إذا أثَّرَ: فهو من بابِ الإعانةِ لا العبادةِ كدعاءِ سَائرِ الكفَّارِ والمنافِقينَ والفُسَّاقِ؛ ولهذا قال تعالى في مريمَ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾، وكان النبيُّ ﷺ يَستعيذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ التي لا يُجاوزُها برٌّ ولا فاجرٌ.

ومن رحمةِ اللهِ تعالى: أنَّ الدُّعاءَ المتضمِّنَ شِركًا، كدعاءِ غيرِه أن يَفعلَ، أو دعائِه أن يدعُو، ونحوِ ذلك؛ لا يَحصلُ غرضُ صاحبِه، ولا يُورثُ حصولُ الغرضِ شبهةً إلا في الأمورِ الحقيرةِ، فأمَّا الأمورُ العظيمةُ: كإنزالِ الغيثِ عندَ القُحوطِ، أو كشفِ العذابِ النازلِ، فلا يَنفعُ فيه هذا الشركُ، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٤٠-٤١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧][1].

---

[١] يعني: أولئك الذين يدعونهم من دون الله يبتغون إلى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ،

وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٣- ٤٤].

فكونُ هذه المطالبِ العظيمةِ لا يَستجيبُ فيها إلا هو سبحانه دلَّ على توحيدِهِ وقطعِ شبهةِ من أَشركَ به، وعُلمَ بذلك أنَّ ما دونَ هذا أيضًا من الإجاباتِ إنَّما فَعلَها هو سبحانه وحدَهُ لا شريكَ له، وإن كانت تَجري بأسبابٍ مُحرَّمةٍ أو مباحَةٍ، كما أن خلقَهُ السمواتِ والأرضَ والرياحَ والسحابَ وغيرَ ذلك من الأجسامِ العظيمةِ دلَّ على وحدانيتِهِ، وأنه خَالقٌ لكل شيءٍ، وأن ما دونَ هذا بأن يكونَ خَلقًا له أولى، إذ هو مُنفعلٌ عن مخلوقاتِهِ العظيمةِ، فخالقُ السببِ التامِّ خالقٌ للمسبَّبِ لا محالةَ.

وجماعُ الأمرِ: أن الشركَ نَوعان:

شركٌ في رُبوبيتِهِ، بأن يَجعلَ لغيرِه معه تَدبيرًا ما، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢][1].

= فيطلُبون إلى الله عَزَّوَجَلَّ الوسيلة التي تُقرِّبُهم إلى الله، فهم في أنفُسِهم مُحتاجون إلى الوسيلة التي تُقرِّبُهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

[١] قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، وهو الأمر الرابع، ولم يذكُرْه الشيخ رحمه الله، وبهذا تنقطعُ جميع آمال المشركين؛ لأنَّ هؤلاء الذين اتَّخذوهم أولياء وشركاء لا يملكون مِثقال ذرَّةٍ استِقلالًا، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ يعني: مشاركةً، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: ما لله، ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: مُعين، والرابع: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّ هؤلاء المشركين قالوا: إنهم وُسَطاء شُفَعاء عند الله، فقطَع الله تعالى تعلُّقهم بهذه الأصنام بأنَّها لا تنفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أَذِنَ له.

فبيَّن سبحانه أنهم لا يَملِكون ذَرَّةً استِقلالًا، ولا يَشرَكونه في شيء من ذلك، ولا يُعِينونه على مُلْكه، ومن لم يكن مالكًا ولا شَرِيكًا ولا عَوْنًا فقَدِ انقطعت علاقته.

وشِرك في الألوهية بأن يُدعَى غيرُه دُعاءَ عِبادة، أو دعاءَ مسألة، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فكما أن إثبات المَخلوقاتِ أسبابًا لا يَقدَح في تَوحِيد الرُّبوبِيَّة، ولا يَمنعُ أن يكونَ اللهُ خالقَ كلِّ شيءٍ، ولا يُوجب أن يُدعَى المَخلوقُ دعاءَ عِبادةٍ أو دعاء استِغاثة، كذلك إثباتُ بعضِ الأفعال المُحرَّمة من شِركٍ أو غيرِهِ أسبابًا لا يَقدح في تَوحِيد الأُلوهيَّة، ولا يَمنَع أن يكون الله هو الذي يَستحِقُّ الدِّينَ الخالصَ، ولا يُوجب أن نَستعمِل الكلمات والأفعال التي فيها شِركٌ، إذا كان الله يَسخَط ذلك، ويُعاقِبُ العبدَ عليه، وتكون مَضرَّةُ ذلك على العبد أكثرَ من مَنفَعته، إذ قد جُعِل الخيرُ كلُّهُ في أنَّا لا نَعبدُ إلا إيَّاه، ولا نَستعينُ إلا إيَّاه.

وعامَّةُ آيات القُرآن تُثبِتُ هذا الأصلَ، حتَّى إنَّه سبحانه قَطَع أثَر الشفاعة بدون إذنه، كقوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وكقوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٧٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآية [الأنعام:٧١]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٩٤]، وسورة الأنعام سورة عظيمة مُشتمِلة على أصول الإيمان.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾،

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣][١].

وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٣- ٤٤]، وسورة الزمر أصل عظيم في هذا.

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج:١١- ١٣][٢].

---

[١] قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ مَقُول لقولٍ محذوف، والتقدير: يقولون: ما نعبُدُهم، وليست خبرًا لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾.

[٢] قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾؛ أي: على طَرَفٍ؛ إنْ أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنة؛ أي: صَدٌّ عن سَبيل الله انقَلَب على وجهه، فخَسِرَ الدنيا والآخرة -والعياذ بالله- وهذا مُشاهَد.

فبعض الناس يلتزم، لكنَّه التزامٌ مُتطرِّف، إن لم يُقيَّض له مَن يُشكِّكه أو يصدُّه استَمَرَّ، وإن فُتِنَ انقلب على وجهِه -والعِياذ بالله- خَسِرَ الدنيا والآخِرة.

ومِن ذلك أيضًا: أنَّ بعض الناس قد يُصاب بمصيبةٍ عظيمة؛ كفقد الولَد أو الأب أو الزوجة أو المال، فتجده قبلَ هذه المصيبةِ مستقيمًا، فإذا أُصِيب جَزِعَ، ورأى أنَّه ليس أهلًا لِأَنْ يُصابَ بهذه المصيبةِ، وربما يرَى أنَّ الله تعالى قد ظلَمَه فيَنقلِب على وجهِه، نسألُ الله العافيةَ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١]، والقُرآن عامته إنَّما هو في تقرير هذا الأصل العظيم الذي هو أصل الأصول.

وهذا الذي ذكرناه كلَّه من تَحرِيم هذا الدُّعاءِ -مع كونه قد يُؤثِّر- إذا قُدِّر أن هذا الدُّعاءَ كان سببًا أو جزءًا منَ السبب في حصول طِلْبَتِهِ.

والناس قد اختلفوا في الدُّعاء المستعْقِب لقضاء الحاجات؛ فزَعم قومٌ من المُبطِلين مُتفلسِفة ومُتصوِّفة أنَّه لا فائدةَ فيه أصلًا؛ فإن المشيئة الإلهية والأسباب العُلْويَّة إما أن تكون قدِ اقتضت وجودَ المَطلوبِ، وحينَئذٍ فلا حاجة إلى الدُّعاء، أو لا تكون اقتضتْه، وحينَئذٍ فلا يَنفعُ الدُّعاء.

وقال قومٌ ممَّن تكلم في العِلْم: بلِ الدُّعاء علامةٌ ودلالةٌ على حصول المطلوب، وجعلوا ارتباطَه بالمطلوب ارتباطَ الدَّليل بالمَدلول، لا ارتباطَ السبب بالمُسَبَّب، بمنزلة الخبر الصادق والعِلْم السابق.

والصواب ما عليه الجمهورُ: من أن الدُّعاءَ سببٌ لحصول الخير المطلوب أو غيرِهِ، كسائر الأسباب المُقدَّرة والمَشروعة، وسواء سُمِّي سببًا أو جزءًا منَ السبب أو شرطًا، فالمقصود هنا واحد؛ فإذا أراد الله بعبد خيرًا ألهمه دعاءه، والاستعانة به، وجعل استعانته ودعاءه سببًا للخير الذي قضاه له، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنِّي لا أَحْمِلُ هَمَّ الإجابة، وَإنَّمَا أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعاء، فإذا أُلهِمْتُ الدُّعاءَ فإنَّ الإجابةَ مَعَهُ» كما أن الله تعالى إذا أراد أن يُشبع عبدًا أو يَرويَه أَلْهَمَه أن يَأكلَ أو يَشْرَب، وإذا أراد أن يتوب على عبد ألهَمَه أن يتوبَ فيتوبُ عليه، وإذا أراد أن يَرحَمَه

ويُدخِلَه الجنة يسَّره لعمل أهل الجنة؛ والمشيئةُ الإلهيةُ اقتضت وجود هذه الخيرات بأسبابِها المقدَّرة لها، كما اقتضت وجود دخول الجنة بالعمل الصالح، ووجودَ الولد بالوَطْءِ، والعِلْمِ بالتَّعلُّم، فمَبْدَأ الأمور من الله، وتمامها على الله، لا أن العبد نفسَه هو المؤثِّر في الربِّ، أو في ملكوت الرَّب؛ بل الرَّب سبحانه هو المؤثِّر في مَلكوته، وجاعل دعاء عبده سببًا لما يريده سبحانه منَ القضاء، كما قال رجل للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا، ورُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا، وَتُقًى نَتَّقِيهَا: هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ قال: «**هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ**»، وعنه ﷺ قال: «**إِنَّ الدُّعَاءَ وَالبَلاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بينَ السَّمَاءِ والأَرْضِ**».

فهذا في الدُّعاء الذي يكون سببًا في حصول المطلوب.

وأعلى من هذا: ما جاء به الكتاب والسُّنة أن رِضا الله وَفرَحَهُ وضَحِكَهُ بسبب أعمال عباده الصالحة، كما جاءت به النصوص، وكذلك غَضَبُهُ ومَقْتُهُ، وقد بَسطْنا الكلامَ في هذا البابِ، وما للناس فيه من المقالات والاضطراب.

فما فُرِضَ منَ الأدعية المنهيِّ عنها سببًا فقد تقدَّم الكلامُ عليه.

فأما غالب هذه الأدعيةِ التي ليست مَشروعةً فلا تكون هي السببَ في حصول المطلوب، ولا جزءًا منه، ولا يُعلَم ذلك، بل يُتَوَهَّم وهمًا كاذبًا، كالنذر سواء، فإن في الصحيح عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنَّه نهى عن النذر، وقال: «**إِنَّهُ لا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وإِنَّما يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**».

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ النَّذْرَ لا يُقرِّبُ مِن ابْنِ آدَمَ شَيْئًا لَـمْ يَكُنِ اللهُ قَدَّرَهُ لَهُ، وَلَكِنَّ النَّذْرَ يُوَافِقُ القَدَرَ، فَيُخْرَجُ بِذَلِكَ مِنَ البَخِيلِ مَا لَـمْ يَكُنِ البَخِيلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ**».

فقد أخبر النبيُّ ﷺ أن النذر لا يأتي بخير[١]، وأنه ليس منَ الأسباب الجالِبة للخير، أو الدافِعة لشرٍّ أصلًا؛ وإنَّما يُوافِق القَدَرَ مُوافقة كما توافقه سائر الأسباب، فيخرج من البخيل حينئذٍ ما لم يكن يخرجه قبل ذلك، ومع هذا فأنت ترى الذين يَحْكُون أنَّهم وقعوا في شدائدَ فنَذَرُوا نذورًا تَكْشِف شدائدَهم أكثرَ أو قريبًا من الذين يزعمون أنهم دعَوْا عند القبور أو غيرها فقُضِيَت حوائجُهم؛ بل من كثرة اغترار المضلِّين بذلك صارتِ النُّذور المُحرَّمة في الشرع مآكلَ لكثير من السَّدَنة والمُجاوِرين والعاكِفين عند بعض المساجد أو غيرها، ويأخذون من الأموال شيئًا كثيرًا.

وأولئك الناذِرون يقول أحدهم: مَرِضْت فنَذَرْتُ، ويقول آخر: خرج عليَّ المحارِبون فنَذَرْتُ، ويقول الآخر: ركبت البحر فنَذَرْتُ، ويقول الآخر: حُبِستُ فنَذَرْتُ، ويقول الآخر: أصابتْنِي فاقةٌ فنَذَرْتُ، وقد قام بنفوسهم: أن هذه النُّذورَ هي السببُ في حصول مَطلوبهم ودَفْع مَرهوبهم.

وقد أخبر الصادق المصدوق أن نذر طاعة الله - فضلًا عن مَعصِيَته - ليس سببًا لحصول الخير، وإنَّما الخير الذي يحصل للناذِر يُوافقه موافقة، كما يُوافِق سائرَ الأسباب، فما هذه الأدعية غيرُ المشروعة في حصول المطلوب بأكثرَ من هذه النذور في حصول المطلوب؛ بل تَجِد كثيرًا منَ الناس يقول: إن المكان الفلانيَّ، أو المَشْهد

---

[١] النَّذرُ -كما قال الرسولُ ﷺ- لا يأتي بخيرٍ؛ ولهذا فكثيرٌ من الناذِرين يندَمون على نَذرِهم، وربما يَدَعُونَ الوفاءَ به، وهم على خطرٍ عظيم -والعياذ بالله- كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧]؛ نعوذ بالله!